الخبير أنطوان بصبوص لـ"الخبر"

خيار الإسلام المسلح فشل في الجزائر

اعتبر الخبير في الحركات الإسلامية ومدير مرصد الدول العربية بباريس، أن خيار الإسلام المسلح فشل في الجزائر، مشيرا إلى ضرورة اعتماد الجزائر على الانفتاح وعلى أحزاب ونقابات فعالة غير مستنسخة. كما أشار إلى أن الوضع في السعودية والعراق قابل للتطور بصورة دراماتيكية بكل ما تحمله هذه الأوضاع من تداعيات.

حاوره: م. إسماعيل/ ص. حفيظ

تابعتم مسار تطور الحركة الإسلامية في الجزائر وبروز خيار الإسلام المسلح بعد التجربة السياسية، ما هي قراءتكم لمثل هذا المسار وتداعياته، وما هو مستقبل الحركات الإسلامية المسلحة؟

● أعتقد أن حجم الإسلاميين في الجزائر لا يعبر عن قوتهم الحقيقية، لا سيما في خضم الحركية السياسية والانتخابية، بمعنى آخر أن هناك من انتخب سابقا لصالح الحركات الإسلامية لكنهم ليسوا مقتنعين بالضرورة بأفكارهم، بل كان التوجه هو معاقبة الحزب الواحد الذي وعد بالكثير ووفى بالقليل، وتزامن بروز الإسلاميين مع أزمة تراجع العائدات النفطية عام 1986 وتوزيع الريع على المواطنين، فكانت هناك رغبة لدى العديد في التغيير، ولم يجدوا بديلا آخر غير الحركات الإسلامية للتغيير، لأن ما بين النظام القائم والإسلاميين هناك فراغ، فلا مجتمع مدني فاعل ومؤثر، والحزب واحد، وهناك أحادية نقابية أيضا، فالتوجه كان من السلطة إلى المسجد، لكن الرغبة كانت أساسا في إقصاء السلطة القائمة، ولم يكن في الساحة سوى "الفيس" ليعبر ويستوعب هذا الرفض، طبعا بطبيعة القانون الانتخابي السائد آنذاك سهل الأمر والقائمون على هذا القانون يتحملون المسؤولية لأنهم لم يدركوا بأن ما يقومون به سيطيح بهم، فإما أنهم كانوا يقبلون اللعبة وعندما تأتي النتائج يقبلون بها وإما أنهم كانوا يعلمون بالأمر وحينها كان لزاما وضع قانون انتخابي آخر. وأعتقد أن مسؤولية "الأفالان" كبيرة في تدهور الأوضاع وفي رغبة الناس في التغيير العنيف لحد ما، على الرغم من أنه كانت هناك إنذارات لا سيما عام 1990 مع البلديات، لكن لا أحد أراد التنبه لذلك ولم يفهمه "الأفالان"، وبانتخابات 1991 والانقلاب عليها، هذا الأخير الذي أعطى للمنتصرين شعورا بأنه سرق منهم انتصارهم، يضاف أن العقيدة عند عدد من زعماء التيار الإسلامي الحركي في الجزائر "سلفية وهابية" تمنح لتكفير الحاكم وتعتبر النظام كافرا، وكانت أدبياتهم ومصادر الإفتاء لديهم تنحصر في فتاوى علماء وفقهاء وهابيين مثل ابن باز والعثيمين، وقد أعطت الفتاوى إطارا شرعيا لتبرير الحرب على النظام الذي لا يحكم بشريعة الله، وهو نظام متحالف مع دول مارقة عدوة مثل روسيا. التزاوج بين عقيدة مستوردة وغضب وتذمر اجتماعي كان بداية للحرب التي عرفتها الجزائر، فقد كان الانطباع بأن هؤلاء قد حرموا من نصر حقوقه في لعبة قواعدها وضعت من قبل خصومهم، من هنا مسؤولية النظام القائم ونظام "الأفالان".

لكن هناك من يقول أن غياب المرجعيات الدينية ساهم في بروز خيار المواجهة والعنف؟

● المشكلة أن المرجعية لم تكن جزائرية، فقد كانت المرجعية الأساسية للذين اتساقوا لخيار المواجهة أجنبية، من بينهم أبو حمزة المصري وأبو قتادة الفلسطيني، فضلا عن المرجعيات في المملكة السعودية مثل ابن باز، فنواة الحرب كانت داخل مثل هذه العقيدة التي ينتفي فيها التسامح، لذلك كان هناك مذابح، قتل وتشريد، فالمرجعية كانت دوما في الرياض وأفغانستان ولندن. صحيح أنه لم تكن مرجعيات جزائرية، وهذا أعتقد أنه نقص، فهناك استيراد من الخليج ومصر والأردن، وهو الأمر ذاته الملاحظ في المغرب أيضا. فالأدبيات السائدة كانت تدعو للحرب على الكفار والنظام الكافر، والأهم أن يكون هناك علماء متنورون لا يتبعون البترودولار، وليس متقوقعين على عالمهم ولا يحملون درجة من التسامح، لقد كانت الصدمة البترولية حافزا ومنطلقا لنشر هذه الأفكار.

انقسم التيار الإسلامي في الجزائر إلى داع للمواجهة من جهة وإلى المتموقع في الساحة السياسية من جهة ثانية، وازداد وضع الحركة الإسلامية تعقيدا مع أحداث 11 سبتمبر، كيف ترون ذلك؟

● هناك الداعون للثورة المسلحة، لهم حجج قوية لأن التغيير في العالم العربي نادرا ما تم عبر الصناديق، وفي الجزائر اقترع الناس وفق ما أراده النظام ولما جاءت النتائج عكس ما أراده النظام ألغيت، مما أعطى ذريعة لدعاة التغيير الثوري والعنفي، ولكن في ذات الوقت لم نشهد أي نجاح لمثل هذه الحركات الثورية في العالم العربي، لأن العنف الشرعي الذي تمتلكه الحكومات والدولة يبقى أقوى من العنف اللاشرعي الذي تنادي به المنظمات الإسلامية التي تتعاطى العنف، ولذلك إذا لم يكن هناك معقل تحميه الدولة لا مستقبل لمثل هذه المنظمات، فخيار العنف المسلح محدود، ويتحول أعمالها إلى إرهاب ثورة في مواجهة دولة منظمة لها وسائل القمع الشرعي، فإن خيارهم يسقط، والدليل على ذلك أن في الجزائر عندما واجهت التنظيمات المسلحة بوسائل العنف خسروا المعركة، بينما آخرون في أفغانستان والسعودية ولبنان، ولأن الدولة تحميهم وتمنحهم غطاء بحجوا في إسماع كلمتهم وتعزيز نفوذهم، فخيار العنف في الجزائر لم يؤد إلى التغيير بل أدى إلى ضرب هذه الحركات التي لجأت إلى العنف.

الخبير أنطوان بصبوص

هل تعتقدون أن خيار الحركات الإسلامية المسلحة في الجزائر قد فشل لأنها تفتقد لأية شرعية سياسية؟

● هذه الحركات لديها نظريات وأيديولوجية لا يشاطرها الإنسان العادي، فالقتل الجماعي والمجازر تجعلها تستخدم العنف من أجل العنف والقتل من أجل القتل باسم الدين، وعلى الرغم من أن شريحة واسعة لا تؤيد النظام القائم إلا أنها لا يمكن أن ترى في الطرف الآخر بديلا، فهم همشوا أنفسهم واصطفوا ضمن خيار العنف والعدمية، وبالتالي تراهم منقطعين، ومع ذلك فجذور العنف لا تزال قائمة مع انعدام العدالة الاجتماعية وتوفير الضروريات من منشآت قاعدية وضمان العدالة، فهناك حاجيات كبيرة، وفي الجزائر غالبا ما يستخدم لفظ "الحڤرة"، فهي قائمة وموجودة، وإذا كانت عنوانا وشعارا للمترشحين عام 1999، فإن الأمر لم يتغير بعد أكثر من 5 سنوات، فمثل هذه الـ"حڤرة" تولد أناسا فقدوا الأمل وتغذي جذور العنف وهم الذين يلتحقون بالجبال وينضمون إلى الجماعات المسلحة، وذات الأمر يلاحظ بالنسبة لمستويات الانتحار في الجزائر لأسباب اجتماعية وغياب العدالة في ظل الرخاء المالي.

هل التقييم بر موز الحركات الإسلامية وهل لديكم تصور عن مستقبل الحركة الإسلامية في الجزائر؟

● أعرف الكثير منهم وأعرف كتابهم وعلى اتصال بهم وأتناقش معهم وأرغب في محاورتهم وفهمهم، وأعرف عددا من رموز الحركات الإسلامية في الجزائر، أنا في حوار لمعرفة دوافعهم ومنطلقاتهم، بمن فيهم ابن باز والعثيمين. أما بالنسبة للجزائر فإنني أعتقد بأنها ستحاول أن تجد لنفسها مكانا في جزائر أكثر انفتاحا، أنا لا أتكلم طبعا عن الجماعة الإسلامية المسلحة أو الجماعة السلفية للدعوة والقتال، بل هناك إسلاميون يمكن لهم الانضمام للمشهد السياسي وأن يكونوا في مجتمع تعددي، لهم صوت وتوجه بشرط التخلي عن مفهوم العنف. وأعتقد أنه من الصحة أن يكون في جزائر تعددية وأن يفتح المجتمع المدني كل الثقوب الاجتماعية، والجزائريون قادرون على التمييز، ولا وجود لأكثرية متطرفة، بل هناك أقلية، ولكن على المجتمع أن يعتمد على أحزاب ونقابات فعلية لا مستنسخة تقودها أيد في الخفاء، لنترك المجتمع ينتفس، لماذا الخوف؟

هل التجربة في المغرب مغايرة عن الجزائر مع وجود مرجعية "أمير المؤمنين" الممثلة في الملك؟

● أعتقد أن إمارة أمير المؤمنين يعترف بها الكثير من المغاربة، باستثناء الذين أصيبوا بالفكر الوهابي المستورد منذ أكثر من 30 سنة، نتيجة الحلف القائم بين السعودية والمغرب مع الغرب في مواجهة حلف عربي آخر يدعمه السوفيات، بما في ذلك قضية الصحراء. فدعم السعودية للمغرب قوي، مع الدعم المالي والإيديولوجي فقد كان البترودولار السعودي يواكب الفكر الوهابي وجعل اليوم 70 بالمائة من مساجد الدار البيضاء بيد الوهابيين في دولة تدين بالمذهب المالكي.

ترون أن مشروع الحركات الإسلامية لم يحقق مشاريع، بالمقابل هناك نشاط كبير لتنظيمات مثل "القاعدة"، بل يمتد للعديد من الدول، كيف تفسرون ذلك؟

● صحيح، هناك عجز من الحكومات العربية وهناك فعالية قوية لتنظيمات مثل القاعدة يجذب ويستقطب المتعاطفين وكل الذين يريدون التغيير من خلال منظور قريب من المذهب الوهابي، علما بأن انقساما أول حدث داخل هذا المذهب في السعودية عام 1990 حينما اختلف على وجوب السماح أو عدم السماح بتواجد قوات أجنبية بالسعودية، فأولئك الغربيون من القصر الملكي سمحوا بذلك عبر فتوى، في حين رفض الطرف الآخر، منذ ذلك الحين أضحى الطرف الثاني هي الأغلبية وهي التي قامت بالثورة على الوضع وتجد في أسامة بن لادن رمزا لها، فالمجتمع السعودي منقسم إلى فئة محايدة مقابل فئة حركية، والسؤال المطروح حاليا هو معرفة متى ستتمكن الفئة الحركية من التأثير على المحايدة، وبالتالي استمالتها، وهنا سيكون الحسم في السعودية.

لماذا تفسرون ما يجري في السعودية؟

● هذا تطور طبيعي، لا يمكن أن يرضى الوهابيون بموقف مثل إرسال دعم للجيش الأمريكي بينما الشعب العراقي يموت عطشا. هناك مقاربة حول عالم الخير وعالم الشر. وقد انقلبت فئات عديدة على العائلة الحاكمة "آل سعود" مع استشراء الفساد والرشوة، مع ملاحظة وجود نزاع وصراع داخلي وسياسة نظام هرمي في الحكم وغياب قيادة واضحة المعالم تحظى بالشرعية. فالملك غائب منذ 8 سنوات وولي العهد لا يتمتع بالشرعية الكافية ليقود البلد ليفرض ذاته وإصلاحاته على المجتمع، وهناك في السعودية 70 بالمائة من السكان لهم أقل من ثلاثين سنة فلا يعترفون بتمثيل فئة حاكمة تقارب التسعين.

ما هو مستقبل الوضع في السعودية؟

● أعتقد أننا لسنا بعيدين عن أحداث دراماتيكية في السعودية تؤثر على الاقتصاد الدولي، فالحرب المعلنة على الأجانب ستدفعهم للهجرة، وبفقدان النخبة التقنية فإنها ستعجز عن الإيفاء بالتزاماتها النفطية، مما سيؤدي إلى انعكاسات على أسعار النفط، والسعودية أظهرت اختراقا في قواتها الأمنية، وإذا وجدت ديناميكية لمصلحة تنظيم القاعدة وأسامة بن لادن فإن الأمور يمكن أن تنقلب، وما جرى في الخبر مع فرار ثلاثة من خاطفي الرهائن يحمل دلالات خطيرة.

هناك من يرد الأمر أيضا إلى ظاهرة "الأفغان العرب" الذين لقوا دعما ثم بعد نهاية حرب أفغانستان أضحوا عبئا على كل الحكومات؟

● هناك من أسباب المشاكل القائمة تجربة أفغانستان، كان الوهابيون يخضعون لولي الأمر، أي الملك بعد تجربة أفغانستان، الحكم السعودي دعم ومول حرب أفغانستان، والعديد من الدول أرسلت محاربين للقتال في أفغانستان، البعض للتخلص من هؤلاء الإسلاميين وأحيانا لإيجاد متنفس وأحيانا لمشاركة الولايات المتحدة في حروبها ضد السوفيات. وبعد انتهاء الحرب، اعتبر المجاهدون أن انتصارهم على إحدى أقوى الدول، يسمح لهم أيضا بتطبيق ذات الأمر لدى دولهم، وبالتالي الإطاحة بالأنظمة القائمة التي لا تطبق الشريعة، هذه التجارب فشلت في الدول العربية، لكن أساس التفكير ظل قائما ضد الولايات المتحدة "قاعدة الشر الأخرى"، وكان ذلك منطلقا لأحداث 11 سبتمبر. لقد تحرر هؤلاء من كل وصاية، حيث أضحت لديهم مرجعيتهم وعلماؤهم، فلم يعد لهم حاجة لوصاية ولي الأمر وتحرروا منهم، وصاروا أحرارا في تحركاتهم.

لكن الولايات المتحدة كانت وراء بروز "الأفغان العرب" ومؤلفيهم، فكيف انقلبت عليهم بعد انتهاء وظيفتهم خلال حرب أفغانستان، وكيف تم الصدام بينهما؟

● هذا صحيح، هؤلاء استخدموا في الحرب ضد السوفيات، وحينما انتهت الحرب لم يعد النظر في دورهم وتأطيرهم، وكانوا يعتبرون "مقاتلي الحرية". بعدها حينما انتقلوا إلى جبهات مثل الشيشان وكشمير والبوسنة، أضحوا ينعتون بالإرهابيين. لم تتم مواكبة تطورهم، وجّه نشاط الغرب إلى الحرب الاستخباراتية التكنولوجية ضد أوروبا واليابان، وتم التغاضي تماما عن تهديد الحركات الإسلامية التي تركت في أفغانستان، وكان هناك استخفاف وسوء تقدير، إلا أن أسامة بن لادن غير هذا المعطى مما أدى إلى المفاجأة، ومع ذلك لم يتغير الأمر مع العمليات الأولى التي كانت خارج التراب الأمريكي. لكن ضرب واشنطن ونيويورك في 11 سبتمبر قلب المعادلة ككل، وجعل الشعب الأمريكي معنيا وأعطى الضوء الأخضر ضد مصادر الإرهاب ومصادر التمويل، لقد استفاقت واشنطن في 11 سبتمبر على الرغم من أنها ضربت فيما قبل، لأنها ضربت في عمق أمنها حيث ضرب الرأس والقلب لأول مرة، فابن لادن وتنظيم القاعدة ودون سلاح فتاك نجح فيما لم يقم به خصوم الولايات المتحدة السابقون.

مفهوم الإرهاب ظل غامضا بعد 11 سبتمبر لأنه اقترن بمنطقة الشرق الأوسط وشمال إفريقيا، لماذا تم التركيز على هذه المنطقة حسب المفهوم الأمريكي؟

● واشنطن تحركت وفق مقاربة وتصنيف جاء بعد أن ضربت في عمق أمنها القومي، وصنفت من اعتبرته أطرافا تستهدفها وهي في غالبيتها إسلامية، وما دام هناك تنظيمات قريبة ومتحالفة مع تنظيم القاعدة فإن الولايات المتحدة تصنف هذه المنظمات بأنها إرهابية.

هناك من يعتبر أن احتلال العراق دعم تنظيم القاعدة، إلى أي مدى يمكن التدليل على ذلك؟

● أولا حرب العراق سمحت للقاعدة بأن تفتح لها قواعد في قلب العالم العربي والإسلامي في دولة مركزية ومجاورة للسعودية ومفتوحة على عدة دول وحدوده 4000 كلم غير مراقبة بعد حل الجيش العراقي، ويتواجد الجيش الأمريكي في المركز وجعل من العراق قواعد، وهذا ما سعى إليه بن لادن أن تكون المعركة في قلب العالم الإسلامي لضم كل القوى التي تريد المشاركة فيها، فالعراق أفغانستان ثانية، في محاولة لهزيمة الأمريكيين، والإدارة الأمريكية تحاول الخروج بأقل الخسائر والأضرار، ولكن أخشى أن تدوم المعركة وأن تكون طويلة، وعلى العرب أن يأخذوا موقفا هل يريدون نظام طالبان أو أمركة المنطقة أم يريدون خيارا وسطا.

أحداث 11 سبتمبر سمحت ببروز ما يعرف بتنظيم القاعدة، ولكن أيضا المحافظين الجدد، ما رأيكم في ذلك وكيف تفسرون إصرار واشنطن على مشروع الشرق الأوسط الكبير؟

● تطوى بعد الانتخابات الرئاسية في الولايات المتحدة سواء أخفق بوش أو أعيد انتخابه، ففي حالة إعادة انتخاب بوش فإنه يتخلى عنهم وسيتبنى فلسفة معتدلة قريبة من التيار المقرب لكسنجر، لأن سياسة المحافظين الجدد أضعفت الولايات المتحدة، في حين أن فلسفة بن لادن ترتكز إلى عقيدة راسخة ولها جذور وتفسير انتقائي وتندرج في إطار العالم الآمد، وأعتقد أن المحافظين الجدد طويت صفحتهم حتى إذا انتصر بوش فإنه سيتخلى عنهم، لقد عادوا إلى الواقعية. أما مشروع الشرق الأوسط، فقبل 11 سبتمبر لم تطلب واشنطن أي إصلاح وكان الإصلاحيون العرب مهمشين من الأنظمة ومن الغرب، لكن جاءت واشنطن بعد الأحداث لتلاحظ بأن الكتب المدرسية والمناهج الدراسية وجمع الزكاة تساهم في حملة العداء وطالبوا بالإصلاح، لكن الإصلاح داخلي وقد سبق لذلك دعاة عرب، والمشروع عربي يعود لعام 1983 مع سعد الدين إبراهيم الذي جمع عددا من المثقفين في قبرص ولم تلق هذه الدعوات أي صدى.

م. إ/ ص. ح